الباب الثانى

القدس ومصر الفرعونية

عثر علماء الآثار في مصر على قبور ونقوش كثيرة ترجع إلى الأسرة الفرعونية السادسة حوالي سنة 2420 – 2280ق.م، سجل بعضُها معلومات عن أقدم حملة حربية في التاريخ المعروف لنا، شارك فيها جيش وأسطول بحري من مصر،وقد كانت هذه الحملة في عهد الملك بيبي الأول، وأرسلت لإخماد ثورة مشتعلة ضد الحكم المصري في فلسطين بناحية الكرمل.

يقول أحد رجال بيبي الأول في نقش نفيس مازال محفوظاً إلى اليوم: وعلى إثر ذلك أي اشتعال الثورة أبحرتُ في سفن البحر ومعي فصائل جنود، ونزلتُ خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمال بلاد سكان الرمال، وعندما سار هذا الجيش على المرتفعات سرتُ وقبضت على الثوار بأكملهم، وقضي على العصاة كلهم.

وهذه القوة في مواجهة ثورة داخلية تدل على أنها ليست محاولة لإخماد الثورة القائمة فحسب، بل هي أيضاً عمل

لإخافة من يفكر مجرد تفكير في الثورة، مما يعني أن فلسطين كانت مسرحاً لثورات متتابعة .

وهناك قصة فرعونية شهيرة بطلها أمير يُدعَى سنوهيت، ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، تكشف عن معيشة بدوية كانت تحياها فلسطين في هذا الزمن، فالقبيلة هي صاحبة السيطرة، وتنافسها بقية القبائل على المنافع، ومن شأن هذا أن يسبب متاعب لحكام مصر، فكان لابد من إخضاع المنطقة لهم، أو ضمان ولاء أمرائها وسنوهيت هذا أميراً كان من رجال أمنمحات الأول 1991 – 1962ق.م هرب من مصر إلى فلسطين بعد انفراد سنوسرت الثالث 1878 – 1843ق.م بالحكم، واختلط بالقبائل البدوية المقيمة هناك، وصاحَب أحد شيوخها تسمّيه الوثيقة القديمة عمو ننشي، الذي حنا عليه، وزوّجه من كبرى بناته، وأدمجه في حياة البادية، حتى صار ذا مال وذرية، واستعمل مهارته في تسكين ثورات البدو.

يقول سنوهيت: لما أخذ البدو يخرجون عن الطاعة، ويقاومون رؤساء الصحارى كبَحتُ جِماحهم، لأن أمير فلسطين قد جعلني عدة أعوام رئيس جيشه، وكل بلاد سرت إليها قد طردتها من مراعيها وآبارها، ونهبت ماشيتها، وأسرت أهلها.

ويحكي سنوهيت عن مبارزة شرسة وقعت بينه وبين مقاتل فاتك من فلسطين، يقول: وقد جاء رجل قوي من فلسطين ليبارزني في معسكري، وكان بطلاً منقطع النظير، أخضع كل فلسطين يقصد فيما يبدو أنه لم يهزمه أحد من أهلها في المبارزة وعند الفجر كانت فلسطين قد جاءت يعبر عن كثرة من حضر المبارزة؛ إذ إنها أثارت قبائلها، وحشدت ممالكها، وهيأت هذا النزال إنها حياة بدوية لا يستقر فيها الولاء لأحد، فكان الفراعنة يضمنون تبعية فلسطين بولاء أمراء المدن لهم ويبدو أنهم كانوا كثيرين لكن هؤلاء الأمراء كانوا يتعرضون لهجمات متتالية من البدو،لا تتوقف إلا لتبدأ من جديد فكان لابد من مساندة الفراعنة لأتباعهم كما أن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا ينقضون ولاءهم للحكومة المركزية في مصر أحياناً.

وقد كان الاختلاط بين الأجناس في مصر وأملاكها مما لا يحول دونه حائل، فمثلا اكتُشف حديثاً ما أدهش علماء الآثار، فقد تبين لهم من خلال لوحة فرعونية قديمة لوحة الملك أن قوماً من الكنعانيين وفدوا على مصر، وسكنوا في منطقة أبي الهول في عهد الدولة الحديثة من عام 1567 – 1085ق.م،وقد تأثر المصريون بضيوفهم، فعبدوا مثلهم ما يسمَّى بالإله حورون، وجاء تمثال أبو الهول الشهير أثرًا لهذه العبادة، وحمل اسماً سامياً هو بر حول، وتحول على لسان العرب إلى أبى الهول.

ومهما يكن، فقد كانت القدس طوال ارتباط فلسطين بمصر جزءاً من مسرح الأحداث المصري، فأميرها إما أن يكون موالياً لفرعون مصر يستحق المعونة والمساعدة، وإما أن يتزعم معاداة مصر والخروج على سلطانها فيستحق اللعن حتى في الطقوس الدينية!!.

لقد عمل فراعنة الأسرة الثانية عشرة من 1991 – 1778ق.م على بسط سلطانهم في اتجاه سوريا، وسيطروا سياسياً واقتصادياً على أرض كنعان، دون أن تصير إقليماً مصرياً وتركز اهتمام المصريين حينئذ على المدن الكنعانية لأهميتها التجارية والعسكرية، لكن القدس لم يكن لها حظ كبير في هذا الأمر حينئذ، وقد شق أميرها عصا الطاعة، حتى عد سنوسرت الثالث مَلِكَها عدواً له يستوجب اللعنات في الطقوس الدينية.

وفي أحد النقوش الفرعونية القديمة سجل أحد ضباط سنوسرت الثالث يدعَى سبك خو ما يؤكد توجيه هذا الفرعون حملة عسكرية إلى فلسطين، وأنه عسكر بمكان يسمَّى سكمم بوسط فلسطين، كما عُثر على آثار فرعونية في مجدو وغيرها من مناطق فلسطين ترجع إلى هذه الفترة الزمنية القرن التاسع عشر قبل الميلاد، مما يؤيد الرأي القائل بسيطرة مصر على القدس وما سواها في هذا التاريخ وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد دخل الفراعنة في صراع مع الحيثِّيين في الأناضول وملوك

بلاد ما وراء النهر، فاحتاجوا إلى ضمان خضوع أرض كنعان لسلطانهم، حتى يمروا خلالها إلى أعدائهم في أمان، فنجح تحوتمس الثالث 1504 – 1450ق.م في إخضاعهم، وكانت القدس من المدن التي أخضعها، وإن تمتع الأمراء هناك باستقلال كبير ويُنسب إلى هذا الفرعون تأسيس قلعة في بيسان وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت الغارات البدوية على أمراء المدن التابعين لمصر تزداد، فكانت الاستغاثات وطلبات النجدة تتابع، وممن أرسلوا يطلبون النجدة من أخناتون 1372 – 1354 ق.م أمير يوروساليم القدس عبدي خيبا، الذي حذر الفرعون بقوة من سقوط المدينة في يد قبائل خبيري الشرسة لكن ظروف مصر حينئذ حالت دون إنقاذ الموقف.

وقد يكون جالوت الذي هزمه جيش طالوت وفيه النبي داود عليه السلام أميراً غير موال للفراعنة، فلم نسمع قط أن المصريين كان لهم أي تأثير أو تدخل في هذا الصراع، الذي دخلت القدس بعده تحت حكم داود وسليمان عليهما السلام ثم انقسمت المملكة في القرن العاشر قبل الميلاد، وسيطر أحد فراعنة الأسرة الثانية والعشرين يُدعى شيشنق من جديد على القدس.

القدس في عهد العبرانيين 966 ق.م27

سوف نتناول في السطور التالية فترة من أهم الفترات في تاريخ المدينة المقدسة؛ وهي الفترة التي تعتمد عليها الحركة الصهيونية في كل ما تدعيه الآن من أحقية في فلسطين، وغيرها من الافتراءات والأكاذيب وسوف نركز في هذا الشأن على النقاط التالية:

العبرانيون من مصر إلى فلسطين

خرج العبرانيون من مصر حوالي عام 1220 ق.م بقيادة موسى عليه السلام، متجهين نحو أرض فلسطين، ولما حاولوا في بادئ الأمر دخول البلاد من ناحيتها الجنوبية قاومهم الفلسطينيون، وحالوا دون تحقيق هدفهم من دخول البلاد، وعندئذ توجهوا إلى جبال مؤاب والمناطق الواقعة شرقي الأردن ويعتقد بعض دارسي العهد القديم أن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد أو آخره، ويرى آخرون أنه من حوادث الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي وليس هناك ما يقطع بصحة هذا الرأي ولا ذاك، ولكن لوحات تل العمارنة التاريخية فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تتحدث عن قبائل تسمى خبيرو كان حاكم القدس عبدي خيبا يشكو إلى الفرعون في مصر من غاراتهم مر الشكوى.

وتعتقد طائفة كبيرة من دارسي الحضارات القديمة أن العبرانيين كانوا أحد عناصر هذه القبائل، ويقولون : لم يكن الخبيرو طائفة لها لغتها الخاصة أو جنسيتها الخاصة، بل كانوا قوماً أطلقوا لساقهم العنان، يتألفون من سلالات مختلفة، ويحمل معظمهم أسماء سامية.

وقد سجلت النقوش والمخاطبات المصرية القديمة مجموعة من الصفات السلبية كان المصريون يطلقونها على هذه القبائل، منها : أغراب، عبيد مغيرون، جوالون، أعداء أجانب، مخاطرون.

ويبدو أن القدس حين خرج بنو إسرائيل من مصر كانت ـ مع بعض المدن حولها ـ خاضعة لقوم من الكنعانيين يدينون بالولاء لفراعنة مصر ولدينا في القرآن بعض أوصاف هؤلاء القوم من وجهة نظر أتباع موسى عليه السلام فحين أمرهم بدخول الأرض المقدسة ليقيموا فيها شريعة الله تعالى قالوا له : إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ سورة آل عمران 22 وقد بالغت الإسرائيليات في وصف هؤلاء القوم وبيان ضخامة أجسامهم والمتوقع أن يكون هذا تهويلاً من جانب بني إسرائيل الذين لم يتعودوا المشاركة في الحروب، إذ كان المصريون يستعبدونهم ويمنعونهم من المشاركة في القتال مخافة أن ينقلبوا عليهم ولم يكن هؤلاء الجبارون إلا الجماعات الكنعانية المتحكمة في حواضر فلسطين، وارتبط تاريخهم بها منذ زمن

بعيد وقد اختلف المفسرون والمؤرخون حول مفهوم الأرض المقدسة التي أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل بدخولها، فمنهم من ذكر أنها الشام عموما، وقال البعض : إنها فلسطين ودمشق وبعض الأردن،... ومهما يكن، فإن بني إسرائيل خالفوا أمر موسى عليه السلام واستحقوا عقوبة التيه، حيث صارت المنطقة التي أقاموا بها في سيناء سجنا لهم تحيط به أسوار معنوية، فلا قدرة لهم على العودة إلى مصر التي خرجوا منها، ولا شجاعة عندهم ليواجهوا سكان الأرض المقدسة، وبقيت فلسطين في يد الكنعانيين الجبارين !! .

من خروج موسى إلى دخول داود الأرض المقدسة

يعتقد أن الفترة المشار إليها هنا تمتد على الأكثر من حوالي منتصف 1500-1000 ق. م وقد حفظت لنا الآثار المصرية القديمة أن الفرعون أمنحوتب الثاني 1436 - 1411 ق.م واصل غزوات سابقيه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة في فلسطين وسوريا، وعثر حديثاً في منفيس على نصب تذكاري سجل فيه أمنحوتب أنه أسر 3600 من أفراد خبيرو وهو لفظ قريب من كلمة عبري لكن ليس من الضروري أن يكون هؤلاء الأسرى من العبرانيين بني إسرائيل فخبيرو كان يشير إلى عدة قبائل منهم بنو إسرائيل يسكنون فلسطين ومناطق أخرى وفي عهد سيتي الأول

1312 - 1300 ق.م فرعون مصر القوي قامت حملة كبيرة لقتال البدو الآسيويين في فلسطين،الذين تحركوا ضد سلطان الدولة في مصر، وسجل ذلك على جدران معبد الكرنك بالأقصر، وفي لوحة عثر عليها في بيسان سنة 1923م وكما يذكر أحد الباحثين في الحضارات القديمة كان للعبرانيين في الحركة التي قام بها هؤلاء البدو ضلع، إذ كانوا يسعون لتوطيد أقدامهم في فلسطين وفي عهد رعمسيس الثاني 1301 - 1235 ق.م قامت حرب طاحنة في قادش بينه وبين مملكة خيتا تقع عاصمتهم في أواسط آسيا الصغرى تركيا الآن، وانتصر المصريون، فحرض الخيتيون عليهم كل أمراء فلسطين، وشجعوهم على الثورة على الفرعون، فاضطر رعمسيس للقيام بحملة لتسكين التمرد، بدأها بعسقلان وقد سجل مشهد على جدران معبد الكرنك الهجوم على هذه المدينة، التي ابتدأ منها رعمسيس الثاني إعادة السيطرة على فلسطين كلها وهذا كله في النهاية يعني أن القدس خلال هذه الفترة كانت خاضعة لسلطان المصريين،أو بتعبير أكثر دقة كانت في غالب الأحيان تدين بالولاء لفراعنة مصر.

<u>القدس وأعمال يوشع الحربية:</u> كان رفض بني إسرائيل الدخول إلى الأرض المقدسة كما أمرهم موسى عليه السلام إيذانا بعقوبة إلهية تنزل بهذا الجيل منهم، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة، قال تعالى (فَإِنَّهَا

مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ) ومعنى هذا أن الأربعين سنة هذه سيتلوها شيء جديد غير ما كان أثناءها، وكان هذا هو السعي إلى دخول الأرض المقدسة وقد قاد خطا بني إسرائيل الأولى في هذا السبيل فتى موسى واسمه يوشع الذي صحبه في لقاء الخضر، وسجل القرآن القصة في سورة الكهف الآيات من 60 - 82 ويذكر المفسرون عن يوشع أيضاً أنه أحد الرجلين اللذين وافقا موسى على دخول الأرض المقدسة.

إن عموم النصوص الواردة عن يوشع توحي بأنه كان رجلاً عسكريًا قويًا، إلا أن الوضع السياسي في الشام كان من التعقد بحيث يصعب على قبائل متخاذلة مثل بني إسرائيل أن تحول الأوضاع لصالحها، وإن كان يقودهم نبي كريم،لأن المصريين لم يكونوا يتساهلون في ضمان ولاء أمراء المدن الفلسطينية لهم، كما كان الأمراء الكنعانيون أكثر حرصاً على بقاء سلطانهم على هذه المدن إذن، لم تصل خطا يوشع ببني إسرائيل إلا إلى سيطرة جزئية على فلسطين، وبقيت القدس ومدن أخرى في يد الكنعانيين إلى أيام داود ـ عليه السلام وعند التحقق من تاريخ حياة يوشع لم نجد مصدراً يحقق بدقة الفترة التي عاش فيها، وإن كانت تتراوح بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد.

طالوت يقود بني إسرائيل في معركة فاصلة: لقد أورد القرآن الكريم قصة طالوت والجنود، وبها الكثير من العبر والعظات ولكن لا ندري بالضبط هل كان الجيش الذي قاده جالوت وقاتله بنو إسرائيل جيشًا كنعانيا أم لا ؟ إلا أن نبرة بني إسرائيل في الحديث حين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا توحي بأنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ويصعب أن يدعوا هذا في مواجهة الكنعانيين أصحاب البلاد الأصليين،وبالتالي نرجح أن الشعب الذي قاتله بنو إسرائيل كان دخيلاً هو الآخر كالعبرانيين على أرض كنعان، لكنه وهو يحاول السيطرة على أرض كنعان اجتاح الشعوب الأخرى، ونال بني إسرائيل بعض هذا الشر، فمن يكون هذا الشعب المعادي ؟.

يخبرنا التاريخ أنه في حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد تعرضت أرض كنعان لغزو من شعب ينتمي إلى جزيرة كريت، استوطن الشواطئ الكنعانية من غزة إلى يافا، وتسميه الآثار المصرية القديمة بلست و الآشورية بالستو وقد قدر لهذا الشعب أن يأخذ أرض فلستيا وجاء الرومان بمزاجهم الأوروبي فعدوا فلسطين اسما رسميا لأرض كنعان وهذا الشعب أي بلست يحتمل أنه غلب على البلاد، حتى تفوق على الكنعانيين أنفسهم، وبهذا نفهم بسهولة معنى أن داود عليه السلام حكم دولة كثير من أبنائها من الكنعانيين، إذ لم يكونوا هم عدو بني إسرائيل.

الفراعنة يعيدون غزو فلسطين

كانت دولة داود وسليمان عليهما السلام في فلسطين وبعض النواحي المحيطة بها دولة استثنائية في مكانها؛ إذ المعهود في تاريخ هذه المنطقة هو تبعيتها لدولة قوية في بلاد ما بين النهرين العراق أو في مصرلذلك لم يمر على موت سليمان سوى بضع سنوات حتى غزا الفرعون شيشنق فلسطين حوالي عام 920 ق.م وقد ذكر سفر الملوك الأول أن هذا الفرعون غزا أورشليم، مما يعني أنه غزا عموم المملكة الإسرائيلية الجنوبية يهوذا، ويؤيده سفر أخبار الأيام الثاني: وأخذ أي شيشنق المدن الحصينة التي ليهوذا، وأتى إلى أورشليم 12: 4وقد سجل شيشنق أحداث حملته على فلسطين على جدران معبد الكرنك، فنقش هناك صوراً للأسرى وهم يُذبَحون أمام آمون، وقائمة قد تَلَف أكثرها بالأماكن التي غزاها الفرعون وتكشف هذه النقوش عن أن حملة شيشنق لم تقتصر على جنوب فلسطين كما يوحي خبر العهد القديم بل امتدت إلى الشمال، وقوّى ذلك أنه عُثر في شمال فلسطين على نقش مصري قديم عليه اسم شيشنق وقائمة الأماكن الفلسطينية المسجلة على جدار الكرنك ضمن هذه الحملة، تخلو من اسم القدس، مما يعني أنها من الجزء التالف في هذا الأثر ويسجل مؤرخو التاريخ الفرعوني أن مصر عاشت قرنين من الزمان على الغنائم التي حملها شيشنق من فلسطين، ولا أدلَّ على

ذلك من العمائر التي أخذ في إقامتها ملوكُ الأسرة الثانية والعشرين، مما يدل على بسطة في المال وسعة في الرزق وهذا يعني فقد بني إسرائيل للكثير من الكنوز والثروات التي خلّفها داود وسليمان عليهما السلام مبكراً وقد كان الهدف من هذه الحملة كما هي العادة الفرعونية ضمان ولاء ملوك هذه الجهات لحاكم مصر، ومنع قيام دولة قوية هناك تهدد سلطانهم، وتضع طرق تنقلهم العسكرية والتجارية في دائرة الخطر.

سيطرة مصرية جديدة على القدس

تبادلت الأمم السيطرة على القدس، فحلقةٌ تاريخية مصرية، ثم حلقة آشورية، وكلدانية، وفارسية، ويونانية، ورومانية قد تطول بعض هذه الحلقات وقد تقصر، لكنها دائما في تغير وتبدُّل، وقد تستعيد دولة قوتها بعد أن تبهت وتضعف، لكنها أبدا لا تنفرد على الدوام بمقعد السيطرة والغلبة وقد كان نصيب الفراعنة المصريين في السيطرة والقوة طويلاً، وإن تخللت مراحلَ القوة عندهم أزمنة للضعف، وعاشت القدس موالية لهم زمناً طويلاً، فكانوا من أطول الأمم في التاريخ سيطرة على القدس وفلسطين، وإن كانت هذه السيطرة في أحيان كثيرة على شكل موالاة وتبعية من ملوك فلسطين لفراعنة مصر وكانت مصر قد صارت تابعة أحياناً وحليفة في الغالب للآشوريين بعد حملات آشورية متتالية على

مصر في القرن السابع قبل الميلاد، ولا ينفي هذا أن المصريين ما كانوا ليفوّتوا الفرصة إن سنحت لهم بالسيطرة على فلسطين لذلك حين فشلوا في مساعدة الآشوريين ضد أعدائهم من البابليين والميديين، وتعرض الآشوريون عند حران لهزيمة من نوع الكارثة سنة 609 ق.م حينها زحف نيخاو ملك مصر في أوائل عام 608 ق.م بجيشه نحو آسيا محاذياً الشاطئ، فخاف يوشيا ملك أورشليم العبري من سيطرة قوة كبرى جديدة عليه، خاصة أنه كان حديث عهد بالخلاص من نير الآشوريين، فزحف يوشيا بجيشه، وكله ثقة في النصر، حتى لاقى جيش نيخاو عند مجدّو.

وبذلك يكون ملك أورشليم هو الذي تعرض للجيش المصري الزاحف بمحاذاة الشاطئ، ولم يقصد غزو الداخل، لكن الهاجس المقلق من فقد الاستقلال، حرك يوشيا إلى هذه المعركة غير المتكافئة، فهُزم هزيمة قاصمة، فتمزق جيشه، ومات هو في جراحه.

وقد تحدث سفر أخبار الأيام الثاني عن يوشيا هذا، وأظهره على أنه أمير مندفع، لا يحسن تقدير خطواته، وأنه لم يطع كلام نيخاو الذي أفهمه أنه لم يخرج لحربه، وأصر على القتال يقول السفر عن يوشيا لم يسمع لكلام نيخاو من فم الله بل جاء ليحارب في بقعة مجدو وأصاب الرماة الملك يوشيا 35: 24 ونتج عن هذه الحملة سيطرة مصر على سوريا

وفلسطين ، وبذلك خضعت القدس للمصريين من جديد، ولكنْ لفترة قصيرة .

نبوخذ نصر في القدس:

قاد نبوخذ نصر أو بختنصر جيوش أبيه سنة 612 ق.م حتى محا بهم دولة الآشوريين، كما هزم فرعون مصر نيخاو بعد ذلك بسبع سنوات فقط في معركة قرقميش، وصارت بابل القوة الأولى في المنطقة بلا منازع وكانت المشكلة في هذا الزمن بالنسبة للقوى الصغيرة مثل قوة يهودا في القدس هي أنه لابد لها من الانضمام إلى قوة كبيرة، تعلن ولاءها لها، وتصون لها مصالحها القريبة، وقد تتعرض القوة الصغيرة لمخاطر شديدة إذا هُزمت حليفتها الكبيرة فلقد نتج عن هزيمة المصريين أمام الكلدانيين البابليين أن انفردت القوة الأخيرة بالسيطرة على غرب آسيا، وكان من جولاتها الحربية أنها سيطرت على القدس بالقوة سنة 597 ق.م، وذلك أن نبوخادنزر بلغته وفاة أبيه وهو بالشام، فعاد إلى بلاده ليتسلَّم المُلك، ويُقِرَّ الأمور في عاصمته، فاستغل فرعون مصر نخاو نيكاو الفرصة، وقوّى جيوشه، وحرّض ملوك فلسطين وما حولها على الانتفاض ضد قوات نبوخادنزر، واستجاب له ملوكٌ منهم يواقيم بن يوشيا ملك أورشليم، فلملم نبوخادنزر قوته، ونظم بيت المملكة من

الداخل، واقتحم على المنتفضين قصورهم، حتى دخل القدس بالقوة، وفرض الجزية على ملكها.

ثم عاد نخاو إلى تحريض يواقيم على الثورة من جديد، فاستجاب له أيضاً، وهنا كانت نهاية مُلك يواقيم، الذي صارت طريقة هلاكه مجهولة، وإن كان سفر أخبار الأيام الثاني يقول عنه: كان يهوياقيم ابنَ خمس وعشرين سنة حين مَلَك، وملك إحدى عشرة سنةً في أورشليم وعمل الشر في عيني الرب إلهه عليه صعد نبوخذناصّر ملك بابلَ وقيّده بسلاسل نحاس ليذهب به إلى بابل 36: 5 – 6 وقد حاول نبوخادنزر أن يقيم من بني إسرائيل سلطة موالية له، على الطريقة التي أَلِفَتْها ممالك فلسطين وسوريا غالباً في صلتها بالآخرين، فنصّب زدْقِيّا تسمّيه الأسفار صدقيا ملكاً على أورشليم ويهودا، وبقي زدقيا على ولائه للغزاة الجدد أعواماً، حتى حرّضه قواده، واستنجد هو بملوك مصر، وفعل مثل ذلك ملك صُور الفينيقية اتبعل الثالث.

لم يكن غريباً مع هذه التطورات أن يكون رد فعل نبوخادنزر عنيفاً، لكنه بلغ مدى بعيداً جداً في عنفه، فزحف في جيش كبير ليُخضع الثائرين ضده، ويخرِّب أوطانهم تخريباً، وحاصر القدس، وفيها بقية ميراث داود وسليمان عليهما السلام خاصة مسجد بيت المقدس وضُيِّق الخناق على

المدينة المقدسة، لكن الحصار رُفع فجأة، فقد جاءت حملة مصرية معادية لنبوخادنزر وجيوشه،رفع البابليون الحصار عن القدس لمجابهتها ولما لم تفعل الحملة شيئاً عاد الحصار وضُرب على القدس من جديد، وطال أمده، حتى نَفِدَ زاد أهلها، وانهدمت الأسوار سنة 586 ق.م، وحاول الملك اليهودي زدقيا أن يفعل شيئاً، لكن النبي إرميا كما يصوره العهد القديم كان ينصح بالاستسلام، وأن لا فائدة من القتال! لذلك حاول زدقيا الفرار ببعض خاصته، لكن جنود نبوخادنزر أدركوهم، وكان مصيرهم كالحا وكان مصير المدينة البائسة أشد كلاحة، فقد دُمِّرت كلها، وأزيل مسجدها تماماً، ونُهب ما حوته من الثروة والكنوز، وصحب ذلك تشتيتُ بني إسرائيل ونفيُهم إلى بابل وعلى ألواحه الأثرية سجل نبوخذ نصر هذه الذكرى الكالحة قائلاً: بقوة نبوخذ نصّر ومردوك، زحفْتُ بجيشي نحو لبنان، فهزمْتُ الخبثاءَ الذين يقطنون الأعالي والمنخفضات، كما هزمْتُ شعبَ إسرائيل في بلاد يهوذا، وجعلتُ تحصيناتِها كومة من الأنقاض، مما لم يسبقْ لملك أن فعَلَه ولقد كان هذا حصادا مُرّا لمصائب بني إسرائيل وفسادهم، كما كان علامة فشل منهم في تحمّل أمانة دعوة الناس إلى عبادة الله رب العالمين.

وتحالف المصريون وحاكمهم أحمس الثاني = أمسيس 570 – 526 ق.م مع البابليين؛ باعتبارهم خصوماً أقل خطراً من الفرس، فعقد أمسيس

ما يشبه معاهدة الدفاع مع نبونبد ملك بابل وبعض القوى الدولية الأخرى، لكن قورش كان ينقضّ على من حوله، حتى دانت له آسيا الصغرى، ودخل بابل سنة 539 ق.م بلا حروب كبيرة، ونتيجة لهذا فشلت سياسة التحالفات المصرية، وتمهّد الطريق أمام قورش الثاني.

القدس تحت حكم البطالمة

أتاح الموت المبكر للإسكندر،دون أن يترك من بعده خلَفَاً قوياً، الفرصة لقواده أن يكوّنوا دولاً مستقلة تتوارثها ذرياتهم وكان بطليموس الأول ابن لاجوس الصديقُ الحميم للإسكندر من أهم هؤلاء القادة وأشهرهم؛ إذ قام كرسيٌّ مملكته في مصر، وذلك بعد تناحر وتقاتل شديد بين أخلاف الإسكندر، أدى إلى اختفاء الأسرة المالكة تماماً إما بالقتل وإما بغيره بعد بضع سنوات من موت الإسكندر وقد تحكمت الجغرافيا في التحركات الحربية والسياسية لبطليموس، الذي كان يطمع في أن تكون له في مصر دولة بحرية قوية، فوجد نفسه مضطراً لخوض الحرب من أجل الموانى الفينيقية الرابضة على شواطئ المتوسط الشرقية، فكان يناور أو يضطر أحياناً لترك سوريا ومدن الساحل في يد خصومه، لكنه سرعان ما كان يعاود الرجوع إليها من أجل هدفه الكبير.

إن كثرة الحروب في تلك الفترة، وتوالد الأحلاف بعضها ضد البعض الآخر يجعل أحداثها متداخلة مختلطة، خاصة أن الحلفاء اليونانيين كانت تحدث بينهم شقاقات وخلافات متجددة، تؤدي لاندلاع الحرب بينهم كما أن أسماء المشاركين في تلك الأحداث كانت كثيرة بشكل لافت للنظرلكنْ يبقى اسما بطليموس وسلوقس فيما يخص القدس على الأقل من أبرز الأسماء في أحداث التصارع والتنافس اليوناني،فقد أقام كل منهما وكانا حليفين وصديقين في الأصل دولة عُمِّرت في مكانها زمناً، فكان سلوقس في بابل وأنطاكية،وبطليموس في مصر، وهما الموطِنان المتنافسان على مدن فلسطين وسوريا منذ أقدم العصور ولقد كانت القدس قبيل سنة 318 ق.م تحت سيطرة أمير مصر اليوناني بطليموس الأول لأول مرة، وقد دخلها كما تشير بعض الروايات يوم السبت، الذي يقدسه اليهود، مستغلاً طقوسهم وعاداتهم في الامتناع عن العمل في هذا اليوم لكن قدمي بطليموس لم تستقرا في القدس وعموم الشام مرة واحدة ففي عام 315 ق.م هزمته جيوش أنتيجونس المنافس القوي على خلافة الإسكندر حتى اضطر بطليموس إلى ترك القدس فيما تركه من أرض سوريا وفلسطين.

وفي عام 312 ق.م كان بطليموس قد أعد العدة لاستعادة الشام، ووقعت الحرب بينه وبين جيوش أنتيجونس التي كان يقودها ابنه ديمتريوس، فانتصر بطليموس قرب غزة انتصاراً ساحقاً، وكان أهم حلفائه حينئذ

سلوقس، الذي قدّم له بطليموس المعونة للعودة إلى عرشه في بابل بعد هذه المعركة وشهد عام 311 ق.م معركة أخرى ساخنة في شمال الشام بين قوات بطليموس وبين قوات ديمتريوس الذي حقق تفوقاً واضحاً، وسيطر على سوريا، في حين اتجه أبوه أنتيجونس بقوات أخرى حتى سيطر على فلسطين.

وقد أعلن بطليموس نفسه سنة 305 ق.م ملكاً على مصر، حين هدأت بعض العواصف الثائرة حول تركة الإسكندر الأكبر، وإن بقيت الأحقاد متوارية داخل النفوس، وكاشفة عن نفسها في الوقائع والحروب وفي هذه الأثناء كان العديد من القادة اليونانيين مثل بطليموس وسلوقس يشكلون تحالفاً واحداً ضد أنتيجونس، الذي سيطر على مساحات واسعة من ممتلكات الإسكندر الآسيوية، وطمع في أن يكون هو العاهل الأكبر للإمبراطورية كلها وفي سنة 301 ق.م سحق المتحالفون جيوش أنتيجونس عند سهل إسُّوس طرسوس وقتلوه هو نفسه، لكن بطليموس لم يشارك في هذه المعركة، وبالتالي رأى حلفاؤه أنه لا حق له في السيطرة على سوريا التي وعدوه بها، وقرروا منحها لسلوقس.

اعترض بطليموس على هذا القرار، وسارع بالسيطرة على سوريا وفلسطين ومدن شاطئ المتوسط سنة 301 ق.م، ومن هنا امتد الصراع

على القدس وعموم الإقليم السوري بين الأسرتين زمناً طويلاً، بقيت المدينة خلاله تابعة لبطالمة مصر قرناً من الزمان.

الأثر البطلمي على القدس

بقيت القدس في يد بطليموس سوتر أو بطليموس الأول بقية حياته توفي سنة 282 ق.م منذ سارع بالاستيلاء عليها سنة 301 ق.م، واستمر خلفاؤه من البطالمة هناك بشكل متواصل تقريباً طوال قرن كامل من الزمان وكان نفي بطليموس الأول لليهود خارج القدس، ونقله الكثير منهم إلى الإسكندرية، وتغلبه على المحاولات السلوقية للسيطرة على المدينة من أهم أعماله ذات الصلة بتاريخ القدس.

وقد بقيت الطائفة اليهودية المنفية إلى الإسكندرية من أهم الطوائف اليهودية في العالم حينئذ، وكان لهم دور كبير في فلسفة الفكر الديني اليهودي؛ ليتوافق مع التراث الفلسفي والفكري لليونان وبعد بطليموس الأول تولى ابنه بطليموس فيلادلفوس أو الثاني، وقد جلب فيما يقال اثنين وسبعين حبراً يهودياً من القدس إلى الإسكندرية، حيث أمرهم بنقل أسفار العهد القديم إلى اليونانية، فبدأوا في أداء هذه المهمة حسب الرواية سنة 285 ق.م وسُمّيت هذه الترجمة بالسبعينية، وهي ترجمة يرى الباحثون أنها غير دقيقة ومن العجيب في هذه القضية أن يستجلب

بطليموس الثاني أحباراً من القدس للقيام بهذه المهمة، وكان الأولى به أن يستعين باليهود القريبين منه في الإسكندرية، وكان الكثير منهم ذوي ثقافة ممتازة، كما لم تكن اللغة اليونانية قد أخذت موضعها المكين لدى سكان مدينة هامشية بالنسبة لليونانيين كالقدس، حتى يُكلَّف أهلها بهذه المهمة الثقيلة كما أننا لا ندري سبباً لرعاية ملك وثني لترجمة هذه الأسفار، التي تأثرت كثيراً بالأمم التي تَوَزَّع اليهود بينها.

ويسجل المؤرخون أن اليونانيين كانوا من أبرع الأمم وأحرصها على صبغ حياة الشعوب التي يغزونها بصبغة الإغريق الثقافية، وعلى الرغم من أن القدس لم تكن حينئذ في القلب من عملية الأغرقة هذه إن صح التعبير فإن أحد الدارسين يسجل أنه لم يمض قرن على موت الإسكندر حتى تأثرت هي أيضاً بإغراء الهيلينية وهي الثقافة والحياة الإغريقية التي لا مهرب منها، وهو إغراء مادي من ناحية، ففي وسعك أن تتصور التجار الإغريق يغدون ويروحون في أسواق أورشليم، والفرصة المتاحة لكل يهودي حاذق مغامر في المراكز التجارية الهيلينية العظمى التي تنتشر الآن من حوله ثم إنه إغراء اجتماعي من ناحية أخرى ذلك أن الهيلينية كانت بسبيلها إلى أن تصبح الهواء الذي يتنفسه الناس، ولم يمض زمن طويل حتى عرضت مفاتنها الاجتماعية، بل والرياضية جهاراً أمام أعين الشباب الطموح في أورشليم وظلت الثقافة الإغريقية تقدم

إغراءاتها لشعوب المنطقة، ولاحظ الدارسون تأثير ذلك بقوة على حياة اليهود، فقال أحدهم لاشك أنه كانت هناك معارضة للأساليب الهلينية، ولكن الأسر النبيلة الغنية بل وأوساط الكهنة أيضاً تغلغلت فيها المطامع الدنيوية، وأصبحت لا تكترث بالمعايير القديمة التي فرضتها اليهودية المدققة والأثر البطلمي على عموم فلسطين سجلته مجموعة برديات اكتشفها الأثريون، وسميت برديات زينون، فقد أثبتت أن فلسطين كانت تمد مصر بزيت الزيتون والخيول العربية والأغنام والرقيق والفضة، وأوردت البرديات أسماء مدن فلسطينية اتخذت أسماء بيزنطية وفي العهد البطلمي لم تكن القدس هي أهم مدن فلسطين، بل شغلت هذه المكانة مدينةُ عكا الساحلية، وسُميت حينئذ بطلمية.

كان فى القدس، ما حولها تجمع يهودي موالٍ للبطالمة، ويدفع زعماؤه لهم الجزية وظهرت بين اليهود موجة تحرر من الدين فحاول بطليموس الرابع توحيد الأديان مع اليهود ورغم شناعة ذلك استجاب المتحررون الجدد من اليهود لبطليموس لكن هذا الولاء اليهودي تلاشى مع تزايد فرض الضرائب عليهم من قِبَل البطالمة، فعاونوا أنطيوخوس الثالث في لقائه الحاسم ضد البطالمة سنة 200 ق.م، ودخلت بعده القدس تحت سلطان السلوقيين.

الصراع البطلمي السلوقي على القدس

اعترافًا بفضله في إعانته على استعادة عرشه، لم يشأ سلوقس الأول أن يحارب بطليموس الأول حين سيطر على الإقليم السوري والقدس جزء من قطاعه الجنوبي عقب معركة إسوس سنة 301 ق.م، لكن العداوة بين الأسرتين ظلت تُتَوارَث وتنتقل من جيل إلى جيل، حتى وقعت سلسلة حروب طويلة في الصراع على هذا الإقليم تسمَّى الحروب السورية حافظ بطليموس فيلادلفوس الثاني على سياسة أبيه في استمرار التمسك بفلسطين وسوريا؛ فوقعت الحرب السورية الأولى بينه وبين ملك بابل السلوقي أنطيخوس الأول من سنة 276 – 272 ق.م. ويبدو أن جماعات البدو في فلسطين وسوريا آزرت السلوقيين على البطالمة في هذه الحلقة من الصراع؛ فأحد النقوش الهيروغليفية بمتحف اللوفر يشير إلى أن بطليموس فرض الجزية على مدن آسيا، وطارد بدوها وفتك بهم في حين يشير نقش بابلي بالكتابة المسمارية إلى أن الجيش البابلي أي السلوقي القادم من بابل دحر الجيش البطلمي في الشام والمؤرخون يؤكدون أن هذا يشير إلى استيلاء السلوقيين على دمشق، ويؤكدون أيضاً أن البطالمة ظلوا يتحكمون في الشاطئ الفينيقي ومدنه البحرية العظيمة صيدا وصور على وجه الخصوص، وكانت هذه المدن هي أهم ما يعنيهم وهذا يشير إلى أن مدينة داخلية، ليست ذات موارد

تُطمِع أحداً فيها كالقدس لم تكن في هذا الزمن موضع التنافس والخلاف، بل دفع إلى كل هذه الحروب التنافسُ على المدن والشواطئ الغنية وذات الموقع التجاري المؤثر وقد عقد أنطيوخوس الأول وبطليموس الثاني هدنة سنة 272 – 271 ق.م، انسحب السلوقيون على أثرها من الشام كله، وبقي في يد البطالمة وبعد حوالي عشرين عاماً تجددت الحرب بين البطالمة والسلوقيين في عهد بطليموس الثاني وأنطيوخوس الثاني، وانتهى الأمر سنة 252 ق.م بهدنة أخرى أبقت القدس وغيرها من أنحاء سوريا الكبرى في يد بطليموس الثاني وفي عام 200 ق.م حقق السلوقيون نصراً حاسماً على خصومهم البطالمة في معركة بانيون بالقرب من نهر الأردن أثناء وقائع الحرب السورية الخامسة، فخرجت القدس وفلسطين من يد البطالمة تماماً، وإلى الأبد، على الرغم من محاولات بطليموس السادس والتاسع استعادتها

وقد أدت الإجراءات القاسية من بعض ملوك السلوقيين إلى ثورة يهودية اشتهرت في التاريخ باسم الثورة المكابية، أنهت سيطرة اليونان على القدس، ومهّدت الطريق أمام الرومان الذين قضوا في المنطقة زمناً طويلاً.